الجهاد والمقاومة بسوس
على عهد مولاي يوسف 1912-1927

ذ. أحمد بومزكو *

مقدمة :

استأثرت منطقة سوس بأهمية خاصة غداة التوقيع على معاهدة الحماية. واصطبغت لحظة الصدام التاريخي بين القبائل والاستعمار بجملة من الخواص، من منطلق كون المنطقة منبع حركة كادت أن تعصف بالوجود الفرنسي بالمغرب. كما شكل ترابها معقلا لحركة جهادية لم تتوقف إلا في حدود 1934. إضافة إلى أنها أضحت مسرحا لصراعات بين الدول الاستعمارية في ظل الوضع الذي أفرزته الأوفاق الدولية لما قبل 1912 وتداعيات الحرب العالمية الأولى، لهذا شهد الإقليم أحداثا وتطورات كان لها كبير الأثر في تحديد وتوجيه مستقبل علاقته بالفرنسيين والإسبان على السواء.

ويروم هذا العرض ذكر بعض المحطات البارزة التي تؤطر الوضعية العامة خلال الفترة الممتدة ما بين 1912-1927، والتي توافق مرحلة حكم مولاي يوسف بن الحسن.

* أستاذ باحث، مركز تكوين أساتذة التعليم الابتدائي تيزنيت.

I- حركية الجهاد بسوس غداة توقيع الحماية :

1- حملة أحمد الهيبة على مراكش :

فعلى غرار باقي المناطق المغربية الأخرى، عم نوع من الاستنفار منطقة سوس، وأحس السوسيون بخطر الاستعمار. وبالنظر إلى الموقع الاستراتيجي، وتعدد الاهتمام الأوربي، فقد تعالت الأصوات للدعوة إلى الجهاد.[1]

لم تكن هذه اليقظة أو هذه الحمية الجهادية وليدة الصدفة، وإنما تستمد منطلقاتها من الأجواء الحماسية التي استطاع الشيخ ماء العينين زرعها بالأصقاع الجنوبية خاصة بعد أن اضطر للاستقرار بتيزنيت 1909،[2] دون أن ننسى تجذر التقاليد الجهادية بالمنطقة منذ القرن 16 على الأقل.[3] لهذا نرى في هذا الإنبعاث والاستنفار الشامل والمدهش رد فعل تلقائي، تعبأت في إطاره القبائل عن طواعية حول الشيخ أحمد الهيبة، الذي رأت فيه العامة المنقذ والمحرر[4].

وهكذا بادر ثلة من العلماء والفقهاء إلى الدعوة لعقد اجتماع يجمع الوجهاء والأعيان والعلماء لتعيين أحمد الهيبة زعيما للجهاد[5].

وقد استطاعت الحركة في بدايتها أن :

* تؤسس وشائج الوحدة والأخوة بين قادة القبائل، وحتى تلك التي عرفت بصراعاتها الدائمة[6].
* تخلق حالة من التعبئة العامة بين صفوف القبائل السوسية والصحراوية من منطلق أن هناك فراغا سياسيا لابد من تعويضه، ولو على المستوى المحلي. [7]
* تلهب حماس المجاهدين بمقولات دينية في إطار الوازع الديني الذي ينشط في مثل هذه اللحظات العصيبة[8].
* تقدم على مجموعة من الإجراءات والأعمال التي اكسبته شعبية وتعاطفا كبيرين بين صفوف القبائل : منها اسقاط المكوس، والكلف عن الرعية باستثناء الضرائب الشرعية[9].

ولما تيقن كبار القياد المخزنيين من تجذر الحركة في جسم القبائل، لم يكن لهم خيار سوى الإنضمام لصفها، لهذا سارع هؤلاء إلى تقديم الدعم للحركة اضطراريا منذ انطلاقتها من تيزنيت يوم 9 يوليوز 1912، وفي كل مرحلة من مراحلها صوب مراكش خوفا من ردة فعل السكان. [10]

2) - لحظة الاخفاق والتراجع نحو سوس :

كان دخول الشيخ والجيوش المجاهدة لمراكش يوم 8 غشت 1912[11]، وقد وصف الشاعر الطاهر الإفراني هذا الدخول قائلا : " . . . ليكن في كريم علم سيدي (يقصد علي بن عبد الله الإلغي) أن السلطان المنصور بالله، دخل مراكش يوم السبت 3 رمضان من غير دفاع، بعد أن خرج منها من بها من العسكر والكبراء للقتال بعدد وعدة، فألقى الله الفشل في قلوبهم، فاختلفت كلمتهم، وخذلهم الله بما أسروا من حب الكفر، ونهبت قشالي العسكر ودور النصارى وهدمت، وامتلأت أيدي العامـــة من مـــتاعهم، وفرح أهل المدينة فرحـــا لا يكيف، وتلقوا بزينة وأبهة. ودخل السلطان في جيش لا يعرف كنهه إلا بالمشاهدة، فاستقر به القرار واطمأنت الدار وذل أنصار الكفر، وفر جميع من بها إلا خمسة كمنوا بدار التهامي الأجلاوي إلى يوم الثلاثاء فاضطر إلى إخراجهم، فقبضوا بدار المخزن، وسرح السلطان يوم الخميس المساجين الذين في السجن أجمعين. . ."[12]

ويبدو أن حسم القبائل المجاهدة قد اعتراه الخلل، مما أثر سلبا على مستقبل الحركة، فهذا طالب سوسي من قبيلة أيت حمد في جوابه المطول للفقيه محمد بن أحمد البعقيلي يخبره فيه بما عاينه وشاهده بمراكش، مركزا على الإهمال الذي طال السوسيين : "أما الأعراب فقد تنمروا لنا منذ دخلنا المدينة، فكأن كل واحد منهم أسد ولج عرينه، فكانوا يعطون لنا في المؤونة قمحا أسود يعلم الله كم بقي في المطامير من سنين . . . ثم أننا بقينا في فندق وقد اكترينا فيه بيتا، فلم نعرف من كان حتى قام الناس وقعدوا للنهب فصرنا نحن زيتا . . ."[13]

كما يكشف عما كان يشعر به السوسيون من تدمر ومرارة "فاخبرك يا أخي أن نحمد الله حين لم تذهب معنا إلى تلك المدينة المنحوسة، التي يكون كل ما نزلها فريسة، فمنذ نزلنا فيها لم نلق من يرحب بنا في مناحيها، وكل ما نلقاه لا يريد منا غير الدراهم . . ." ويسترسل قائلا على لسان الفقيه أوعبو "إن الأعراب أفسدوا أمر الناس، ويا ليتهم تركوه كما كان مع التباس، فقد قادوا أهل سوس ففضحوهم أجمعين، وعروا عما كان مستترا من عار السوسيين."[14]

وقد وافق هذا الوضع، تواطؤ القياد الكبار مع الاستعمار[15]، مما عجل بانهيار القدرات الحربيـــة، وحتى لما أسر حيدة بن مايس إلى الشيخ أحمد الهيبة بما يقوم به القياد من حوله، ودخـــولهم فـــي علاقات سرية وعلنية مع الفرنسيين قائلا : "إني الآن سأبذل كل أعظم نصيحة عليها وحدها يطود أمرك، فإما أن تقبلها وإما أن تردها، إن أهل سوس حين أوصلوك إلى هذه البلاد تمت مهمتهم، ولم يبق من قوتهم ما ينفعونك به . . . فإن أردت تمام أمرك فعليك الآن بهؤلاء الذين رأيتهم فتتغذى

بهم قبل أن يتعشوا بك، فقد رأيت ما صنعوا بأولاد مولاي الحسن، فكيف تأمنهم عليك بعد ذلـــك، فوض إلي فيهم الأمر فلا تعرفهم إلا معتقلين تغذوا بهم البغال إلى قنة من قنن الجبـــال الشـــامخة بسوس، فإذ ذاك يمكن لك أن تصطنع من هم أقرب إلى نصحك »[16] فكان جواب الشيخ في غاية البساطة والتواضع مكتفيا بالقول بأنه « منصور بأمر الله وبإذنه فلا يبالي بهم، ولا بالمئـــات مـــن أمثالهم. »[17]

أمام هذا الموقف المسالم، أخذ عدد من المجاهدين في التسلل إلى سوس عبر منافذ الأطلس الكبير، دون أن ننسى كون قوات القبائل آنذاك عبارة عن جماعات متفرقة يعوزها التنظيم والتموين لمواجهة الفرنسيين الذي استكملوا كافة الاستعدادات من حيث العدة والعتاد. لهذا شكل أول صـــدام بين أتباع الهيبة والفرنسيين بسيدي عثمان[18] ضربة للقدرات الحربية للقبائل، مما خلق حالة مـــن الفوضى وعدم الاستقرار بمدينة مراكش. ومباشرة بعد تراجع قوات المجاهـــدين نحـــو ســـوس، توجهت همة فرنسا إلى ملاحقة الهيبة، والحيلولة دون تجميع قواته وإعادة الكرة من جديد ولتهديد مراكش، خاصة وأنه التجأ إلى تارودانت، وهو ما شكل مصدر إزعاج لها.

II- فرنسا واستراتيجية احتلال سوس :

على الرغم من كون العمل العسكري أصبح أمرا ضروريا بالمنطقة، فإن القوات المخزنية، وبتأطير وتوجيه من السلطات الاستعمارية هي من تكلفت بمطاردة الهيبة وإخضاع جزء كبير من القبائل السهلية، وذلك في إطار ما يعرف بـــ "سياسة كبار القياد".[19]

1)- سياسة كبار القياد :

إن ما يعرفه الفرنسيون عن سوس لا يعدو أن يكون تلك الإشارات والتلميحات المحـــدودة التي جمعها بعض الرحالة الأجانب خلال القرن 19[20]، والتي ركزت بالأساس علـــى صـــعوبة المسالك وحيوية البنية القبلية العتيقة والمعقدة، التي تنتظم في شكل فسيفساء من القبائل الغيورة على استقلالها. وبركونه إلى سياسة كبار القياد يكون ليوطي قد وضع يده على أكثـــر القضـــايا إثـــارة للانتباه في النسيج المجتمعي السوسي، تحدوه الرغبة في استمرار الريادة والرئاسة في الاشـــتغال داخل البنية القائدية[21] التي أرسى معالمها السلطان الحسن[22]، أي أنه يفعل ذلك إنما يقتفـــي أثـــر المخزن في تعامله الواعي مع البنية القبلية المحلية[23]. ومن دواعي هذه السياسة كـــذلك حـــرص الفرنسيين على سحب البساط من تحت أرجل الهيبة، وذلك بكسب ود القياد الذين كـــانوا دعامـــة

الحركة في زحفها نحو مراكش، كما يجد ذلك مبرره في استراتيجية التريث وجعل ممثلي المخزن أكثر انخراطا في التدبير المحلي ولو في سياق سياسي مغاير، دون أن ننسى كذلك ظروف الحرب العالمية الأولى[24]، التي أرغمت فرنسا على نهج سياسة التوافق الصعب بين متطلبات الظرفية الدولية وبين مستلزمات العمليات العسكرية بمنطقة سوس، التي لم تكن بمعزل عن الوضع الدولي العام، عبر اقتصاد المجهود الحربي الفرنسي. وهكذا كتب في مجلة مقربة من الأوساط الاستعمارية (B.C.A.F) ما يلي :

« إن النتائج المحصل عليها في الجنوب تعطي البرهان على ما يمكن فعله بوسائل أهلية بشرط مراقبة استعمالها . . . وأيضا بشرط عدم التقشف في الاعتمادات التي يمكن اللجوء إليها عند الضرورة، أقل تكلفة على كل حال من تنقل قوات أوربية ليست متوفرة بما فيه الكفاية في المناطق الأخرى من الإمبراطورية الشريفة. »[25]

وقد قابل بعض علماء سوس هذه السياسة بنوع من الرفض من الوجهة الشرعية من خلال استصدار فتاوى تمنع التعامل أو معاضدة القياد[26]، يقول الشيخ مربيه ربه « هؤلاء القوم كونهم طليعة العدو . . . وكونهم يقاتلون معه بالسلاح وكونهم يساكنون بمصرة تحت رايته . . . إن الفتاوي الصادرة عن على شيوخنا أنه يجب قتالهم وأخذ ما لهم على حكم الفيئ والغنيمة . . . ومالهم إنما هو تحت أيدي الكفار »[27]. كما تصدر البعض منهم كذلك لاستنهاض الهمم ونصح القبائل بالحفاظ على نفس الحماس الجهادي، وعدم التعامل مع الفريق الموالي للاستعمار، يقول عبد الرحمان بن عبد الله البوشواري في رسالة إلى قبيلتي إندوزال وكطيوة جنوبي تارودانت « . . . إن الجمعة رحمة والفرقة عذاب، ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه . . . ولتعلموا أعانكم الله أن من وقف مع أمر المسلمين فنحن ندعو له بخير في صباح ومساء، ومن لا فالله يجعل تدبيره في تدميره، ويرد كيده في نحره آمين بجاه من لا نبي بعده. »[28]

2) - احتلال الحواضر الكبرى :

مباشرة بعد نكسة سيدي بوعثمان، التي كانت ضربة قاسية لقدرات القبائل السوسية الحربية، طرحت مسألة سوس بحدة[29]، بعد تراجع قوات المجاهدين إلى الجنوب، لهذا تم تسخير حركة كبار القياد في فتح مجالات نفوذهم، والزحف نحو سوس وتحديدا تارودانت التي احتمى بها الهيبة وأتباعه[30]. ويبدو أن ذلك شكل مصدر إزعاج لفرنسا، خاصة وأن الشيخ كثف مسعاه لجمع شمل القبائل التي مازالت وفية لحركته الجهادية. وتحسبا لعودته إلى مراكش والحيلولة دون تجميع

قواته، بادرت إلى إرسال ثلة من القياد الكبار بزعامة التهامي الكلاوي في حملة عسكرية، وضعت تحت الإشراف الصوري لمولاي الزين شقيق مولاي يوسف، لإضفاء الشرعية عليها[1]، واستهدفت في بداية الأمر مدينة تارودانت التي دخلتها يوم 24 ماي 1913[32]. وقد بادر القائد حيدة بن مايس إلى استعمال أسلوب الحوار والمسالمة في إقناع الهيبة بضرورة الدخول في زمرة المخزن، وبعث إليه قائلا « إن الحق الذي لك علينا أن نقف معك حتى تأخذ معاشا حسنا وتسكن فيما تختاره من الحواضر، وإلا فلا يمكن إلا أن تلحق سوس بمراكش، ومتى قدرت سوس أن تمتنع عن الحمراء من قديم وهي قطبها بل قطب كل الجنوب »[33]. كما كلف محمد بن يعيش بأمر من السلطان بمكاتبة الشيخ أحمد الهيبة، إلا أن تدخل بعض الجهات أفشلت مهمته[34]. ولنفس الغاية توسط عبد الحي الكتاني[35]، بيد أن مسعاه اصطدم بموقف الهيبة الثابت في عدم الخضوع والاستسلام، وعاتب أمثال الكتاني بقوله « يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، تدعونني لأكفر بالله، وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار »[36].

مهما يكن من أمر، فإن الشيخ أحمد الهيبة استطاع الخروج من تارودانت وولى وجهته نحو أسرسيف بقبيلة أشتوكن التي تتوسط سهل سوس[37]، وفيها تمت تصفية بعض العلماء والقياد المتهمين بأن لهم صلة برموز الاحتلال أمثال : القائد عبد السلام الجراري والقائد سعيد المجاطي والفقيه أوعبو . . .[38]

أما بالنسبة لأكادير التي تمثل عمقا استراتيجيا بالنسبة لفرنسا منذ حادثة 1911[39]، فاحتلالها له رمزيته لإنعاش معنويات قوات الاحتلال، إضافة إلى التخوف من تزايد نشاط رجال الأعمال الألمان بسوس[40]، لهذا كان من الضروري تحصينها حتى لا تقع في أيدي القبائل المناوئة لفرنسا. وبدعم من الكيلوليين تمكنت من إحكام سيطرتها على المدينة بتاريخ 15 يونيو 1913[41].

أما بخصوص مآل تيزنيت[42] التي كانت منطلق حركة أحمد الهيبة، فإنها أصبحت في خضم التطورات الجديدة في وضعية تردد بين الولاء للهيبة، التي مازالت تحركاته الجهادية تثير حماس القبائل، أو الاتصال بسلطات الحماية بمراكش لتعيين خليفة مخزنيا على المدينة[43] بعد الفراغ الذي تركه طرد النعمة منها[44]، أو التزام الحياد تجاه ما يجري آنذاك. لهذا الغرض اجتمع عرفاؤها وأعيانها، واستقر موقفهم على مكاتبة سلطات الحماية، التي سارعت إلى إرسال القائد الحبيب باقا إلى تيزنيت إلا أنه غرق في عرض ساحل أكلو في ماي 1913[45]. وأمام هذا الحدث

المفاجئ تم إيفاد القائد محمد بن دحان العبدي على وجه السرعة، وكان وصوله للبلدة بتاريخ 12 يونيو 1913[46].

3)- رد فعل القبائل المنضوية تحت لواء الهيبة :

ففي الوقت الذي تهفو فيه فرنسا إلى تخليص تارودانت عاصمة سوس من قبضة الهيبة، وجدت نفسها وجها لوجه أمام عدة بؤر للمقاومة،وثمة خيط رابط بين القبائل التي ظلت تقاوم بكل ثقلها وقوتها، وهو الولاء للهيبة. لهذا وخلال الفترة الممتدة ما بين 1913-1915، لم تنقطع هجومات المجاهدين على المراكز الحضرية الخاضعة، انطلاقا من أعالي الجبال المحصنة.

ويبدو أن تباين الإمكانيات الحربية، من حيث العدة والعتاد بين القبائل والقوات التي سخرتها فرنسا، جعل مهمة المجاهدين تنحصر في القيام بهجومات مباغتة، وتفادي المواجهة المباشرة وجها لوجه[47]، باستثناء تلك المواجهة التي جمعت حيدة والناجم الاخصاصي بقرية "أزرو" حيث كانت الهزيمة على الأول، الذي سرعان ما استجمع قواته[48].

وخلال هذه المرحلة شكل مثلث وادنون وايت باعمران والأخصاص، المجال الحيوي لتحرك المجاهدين[49]، والعمق البشري والتمويني للمقاومة، وملجأ لتنظيم أمور الجهاد في الحالات الحرجة. وكانت مناسبة اجتماع أسرير التاريخي[50]، الذي دعا إليه الهيبة، فرصة أمام القبائل الصحراوية والسوسية لتدارس الوضع العام بعد سقوط المراكز الحضرية بيد القوات التابعة للفرنسيين، ووضع الخطط الحربية للإجهاز عليها.

لهذا لم يطل أمد خضوع سهل سوس، إذ سرعان ما كان هدفا لهجومات متفرقة من قبل المجاهدين على الشكل التالي :

- محاصرة تيزنيت لمدة شهرين[51].
- نزول المجاهدين عبر تراب قبيلة إيسندالن إلى أم جريد بهوارة، مستهدفين تارودانت[52].
- هجوم أيت الحسن وايت الخمس وإصبويا على أكلو والسيحل وأيت برابيم[53].
- نزول الناجم الأخصاصي إلى بيوكرى، ومحاولة مهاجمة إكسيمن لقطع الطريق بين تارودانت وتيزنيت[54].
- دعم قبيلة إيداوتنان في حصارها لأكادير[55].

وقد نهج بعض قادة القبائل السهلية المحاصرة قدرا من الحنكة والدهاء في تجاوز الوضع المحرج، كما هو الشأن بالنسبة للقائد الجراري الذي نجح غير ما مرة في فك الحصار عن قريته تالعينت، بعد أن أغدق الأموال والهبات السخية على بعض قادة الجهاد. [56]

ولأهمية الدور المنوط بالمراكز المذكورة، وتنسيق الجهود لصد هجومات القبائل، نزل الكولونيل دولاموط بأغبالو على ساحل ماسة يوم 24 غشت 1914[57]، حيث اجتمع بباشا تيزنيت. كما قام خلال يونيو من نفس السنة بزيارة قادته إلى كل من تارودانت وأكادير اجتمع فيها بأعيان وقادة القبائل الخاضعة.

وكان من نتائج هذا الهجوم المضاد، وعنف المواجهات التي جرت في عدة أماكن بسهل سوس، أن أعطيت الأوامر لباشا تارودانت حيدة بن مايس للتحرك صوب الجنوب[58]، حيث أخضع ابتداء من 20 شتنبر 1914 أم جريد بهوارة، وقدم الدعم لاكسيمن المحاصرين من طرف إيداوتنان. وبموازاة مع ذلك قامت السفينتان le le cosmao و le cossard بقنبلة معا قل المجاهدين على الساحل، كما تدخلت السفينة Amiral- charner للحيلولة دون استمرار تقدم قوات الناجم الاخصاصي نحو أكادير[59].

وفي 14 دجنبر 1914، تحركت محلة حيدة بن مايس صوب بيوكرى لفتح الطريق نحو تيزنيت[60]، والحيلولة دون الاتصال بين أحمد الهيبة وأنصاره بالجنوب، وقد أبان الناجم عن مقدرة فائقة في التحرك والانتشار في منافذ الأطلس الصغير الغربي التي تشكل معابر قديمة للاتصال[61]. وهكذا تراجع من بيوكرى نحو إيمي مقورن لاستدراج حيدة الذي مني بهزيمة بإيكونكا. وفي خم هذه التطورات تراجع الهيبة نحو كردوس بتراب إيداوبعقيل[62]. أما شقيقه مربيه ربه، فحاول بتاريخ 9 يناير 1915 الاتصال بفرقة إيرعى عند قمم جبال اشتوكن انطلاقا من ماسة، إلا أنه لم يفلح في ذلك، مما حدا به إلى التراجع نحو ويجان، ومنها إلى الصحراء[63].

4)- حملة حيدة بن مايس الأولى نحو تيزنيت 1915 :

إلى حدود 1915 وجد الفرنسيون أنفسهم أمام معطيين :

أ)- المعطى الأول : هو الاقتناع بوجود قبائل غير خاضعة، وأنها مستعدة للدفاع عن كرامتها واستقلالها وحريتها.

ب)- ا لمعطى الثاني : الاختلاف والتباعد بين مؤيدي الاستعمار[63].

فأمام معاودة الشيخ مربيه ربه تهديد تيزنيت وأكلو، ومحاصرة القائد عياد بتالعينت في غشت 1915[64]، انطلاقا من الصحراء، أوعزت سلطات الحماية إلى القائد حيدة بن مايس بالتحرك من جديد صوب الجنوب، تدعمه السفينة الحربية De chaylla[65]، التي قامت بقنبلة مواقع المجاهدين بأزغار تيزنيت والسفوح الشمالية للسيحل وايت برابيم.

وكان أول عمل أقدم عليه حيدة عند وصوله إلى تيزنيت في 2 شتنبر 1915، هو استهداف ميرغت التي تشكل ممرا مهما نحو الأخصاص[66]. وبها دخل في علاقات سرية مع بعض أعيان القبائل خاصة مبارك أبو الطعم الرخاوي[67]، بعد ذلك عرج على ويجان[68] في 11 شتنبر. ويبدو أن من مقاصده في ذلك :

* القبض على الشيخ النعمة بن ماء العينين الذي استقر بها منذ 14 دجنبر 1912، بعد تعنت الوجانيين ورفضهم تسليمه لسلطات الحماية.

* الإجهاز على ويجان، إدراكا منه بأن المنفذ الرئيسي للتوغل داخل جبال ايداولتيت لأنه « الباب إلينا وإليهم، فإن سدوه وحفظوه حق سده وحفظه، فلا شك ينفع الجميع، وإن عمره العدو فلا جرم سيطمع في قريب من الاستيلاء على بقية البلاد . . .» [69]

ويظهر أن المناوشات الأولى أرغمت قادة الجهاد على التحصن داخل القرى والدفاع عنها بكل الوسائل بما في ذلك استعمال الخنادق (أضراس)[70]، والتحرك بشكل أثار انتباه العدو. وكان للعلماء والطلبة والفقراء وبعض رموز الجهاد[71]، أمثال : المدني الأخصاصي والطاهر الافراني والمحفوظ بن عبد الرحمان الأحوزي، وعلي بن عبد الله الإلغي . . . الدور البارز في تأجيج حماس المتحصنين. أما الخطط الحربية فكانت تهيئ من طرف ثلة من الأشخاص منهم : القائد سعيد بن أحمد الكردوسي والشيخ أحمد كومزر البعقيلي والحاج يعزى الأداييي الرسموكي« فعليهم يدور أمر جزولة وهم من أحيل خلق الله وأدهاهم وأعرفهم بمكائد الحروب» [72].

وعلى الرغم من سقوط ما ينيف عن 200 من المجاهدين، فإن ذلك لم يؤثر على معنواياتهم، وكان لاستماتة الوجانيين ومن يعاضدهم أمام زحف حيدة، صدى قويا، داخل جبال جزولة، حيث سارعت القبائل إلى التعبير على تضامنها مع المتحصنين، بما كانت ترسله من مؤن وعتاد ومتطوعة. وبعد حصار استمر طيلة أربعة أيام، أجبر حيدة على الانسحاب وعاتب القائد عياد الجراري قائلا :« ما هكذا كنت تقول لي عن هذه الناحية، فتقد زعمت أن الناس كلهم قد عراهم هذا الدهش من هذا الجيش اللجن، فلا نكاد نظهر أمام ويجان حتى تنقاد لنا من فيه، ويسهلون لنا النعمة » [73]

III- التحركات الألمانية بالجنوب المغربي ورهان معاكسة فرنسا في احتلال المنطقة :

1)- مظاهر دعم ألمانيا لحركة أحمد الهيبة :

ابتداء من سنة 1916 ازداد حماس المجاهدين، وأصبحوا أكثر عزيمة من ذي قبل لتغيير الاستراتيجيات الحربية خاصة في جنوب تيزنيت[74]. ففي الوقت الذي احتلت فيه اسبانيا مركز طرفاية خلال منتصف يونيو 1916 من طرف الكولونيل Benz[75]، دخل هذا الأخير في علاقة مع محمد الأغضف شقيق أحمد الهيبة، وقدم له دعما ماليا يقدر بـــ 1 مليون من العملة الإسبانية. والواضح أن هذا الحدث قد وظف بشكل ذكي ولافت للانتباه من طرف المجاهدين.

وفي ذات السياق كذلك، كثف الشيخ الهيبة اتصالاته مع الألمان بواسطة سيدي رحال، الذي كان رقاصا يوصل الرسائل بينه وبين ضابط بالقنصلية الألمانية بالعرائش يدعى Rohner[76]. كما تم انتداب القائد مبارك الكيلولي للقيام بربط الصلات بين الشيخ والألمان، لقدم العلاقات بين آل الكيلولي وبعض الفعاليات الألمانية[77]. وهكذا، وبتاريخ 18 أكتوبر 1976، أرسل الشيخ رسالة إلى سفيري ألمانيا وتركيا بمدريد، يفهم منها أن الدولتان أرسلتا مبعوثين وهما الحاج عمر ومن بعده إبراهيم التطوانـــي من العرائش، تخبـــر الشيخ بقرب إرسال سفينة محملة بالسلاح والذخيرة. وقد حرص الهيبة على إطـــلاع حلفائه على الوضعية العامة بالمنطقة، مؤكدا أن فرنسا « . . . تكالبت . . . لهذه النواحي ببذل الأموال والعسات، ولم يحصلوا، في ذلك، لله الحمد، إلا على الخسارة، وزاد ذلك المجاهدين حزما على حزم ويقينا على يقين » واستطرد قائلا« ليكن في كريم علمكم أنه إن استدام عدم الاتصال بيننا مع الدولتين، وتكالب الأعداء بخز عبلاتهم وحيلهم وبذل مالهم، فربما تقع الوسوسة ويعظم الأمر » . واقترح عليهما تمرير الدعم المرتقب عبر مرسى طرفاية المراقب من طرف إسبانيا، وختم رسالته بمطالبته استعجال الدعم والاتصال« والحاصل جدوا –أعانكم الله- واسرعوا، اسرعوا اسرعوا باتصال بيننا جل أو قل بأي سبب أمكنكم في أي موضع أمكنكم . . .» [78]

لهذا الغرض أنيطت للقنصل الألماني السابق بفاس Probster مهمة سرية بسوس، استعان خلالها بخدمات أسير مغربي من قبيلة أولاد جرار[80] يسمى العربي بن أحمد وضابط تركي يدعى أحمد صابري باي اللذان كان لهما اتصال بممثل الزاوية المعينية بفاس محمد شمس.[81]

ففي منتصف نونبر، وصلت غواصة ألمانية من نوع U.C.20 إلى مصب وادي أساكا[82]، وحاولت تمرير الأسلحة والدخيرة إلى المجاهدين، إلا أن هيجان البحر حال دون إيصال كافة

المساعدات إليهم. ومن المؤكد أن رئيس البعثة الألمانية-التركية الدكتور Probster قد تمكن من النزول بالبر، والتقى بيرعى يوم 6 دجنبر، ثم اتجه نحو طرفاية ومنها أبحر إلى جزر كناريا.[83] وإذا كنا لا نستطيع تحديد حجم المساعدات التي يقال إن الألمان قد قدموها لأحمد الهيبة، فبالإمكان التأكيد على أهمية هذا الإجراء، باعتباره يمثل تهديدا حقيقيا للأطماع الفرنسية بالمنطقة، لأنه أضفى دينامية على الحركة الجهادية، وألهب حماس القبائل لاستهداف المجالات الخاضعة بسهل سوس.

2)- رد فعل الإدارة الفرنسية :

أضحت التحركات الألمانية بالسواحل الجنوبية أمرا مزعجا لفرنسا، وفرضت نهج أسلوب أكثر حزما، لهذا بادر المقيم العام ليوطي إلى زيارة أكادير[84]، اجتمع فيها بكبار قادة وأعيان القبائل وباشا تيزنيت، لوضع استراتيجية تنسيقية لمواجهة المستجدات آنذاك. وعلى ضوء ذلك، وبتاريخ 4 ثم إيفاد ضابط للاستعلامات يدعى L.Justinard (القبطان الشلح) إلى تيزنيت[85]، بمعية القائد عبد الرحمان حديمان الذي خلف بن دحان[86]، وأنيطت إليه مهمة تقصي الأخبار عن هذه التحركات. وبفضل إتقانه للأمازيغية والعربية، ودرايته الواسعة بالتقاليد والعادات المحلية، فإنه تمكن من زرع مخبرين على طول الساحل. مما سمح لفرنسا بمراقبة تحركات الألمان عن كثب، ورصد تنقلات المجاهدين ومكامن الضعف والقوة بين صفوفهم.

أ)- حملة حيدة بن مايس الثانية نحو تيزنيت 1917 :

لتدارك الموقف، بادرت القيادة الفرنسية من جديد إلى إرسال حملة عسكرية كبرى بقيادة حيدة بن مايس نحو تيزنيت[87]. وهيأت له كامل الإمكانيات اللجوستيكية لإنجاح مهمته[88]، كما توصل بدعم من الكنثافي والكلاوي. وبعد وصوله إلى تيزنيت بتاريخ 1 ربيع النبوي 1917/1335 ولى وجهته نحو قبيلة السيحل (1 يناير)، حيث عسكر بمنطقة تيغانيمين، على أساس أن يقتحم تراب أيت باعمران، الذي يشكل مجالا مزعجا ومناوئا للفرنسيين، لقربه من مركز تيزنيت، ولتردد إسبانيا في احتلاله وفق معاهدة 27 دجنبر 1912[89].
وكان حيدة أما خيارين إما أن يسلك الطريق الساحلي أو المسلك الداخلي الذي يمر بالمسيدرة بقبيلة أيت النص. وفي هذا الصدد تمكن الفقير حماد بن بيهي[90]، بحنكته ودهائه من مغالطة حيدة، بأن أوعز إليه بضرورة سلك واد إيكالفن لمباغتة قبائل أيت باعمران، وأقنعه بأن مناسبة العيد كافية

لدخول البلاد، وذلك لانشغال الناس بالأفراح والأعراس، وتفرقهم كعادتهم في مثل هذه المناسبات. فتوجيه حيدة إلى ذلك المكان المنيع والخطير، كان ضروريا وملحا، لأنه في حالة سلوك الحملة للطريق المحدد لها مسبقا (أي الساحل) من شأنه أن يخلق مضاعفات سلبية على قبائل المنطقة. والحاصل أن هذه الخطة قد أعطت في نهاية المطاف أكلها، وسمحت للقبائل المجاهدة بتأطير واستنفار قواتها، وتوجيهها إلى المكان المعلوم. فمباشرة بعد مغالطة حيدة، توجه حماد إلى إيسك، وخطب في الباعمرانيين قائلا :«طرقت أسماعي إشاعات تروج بأن حماد ندهبي قد قبض الرشوة من الباشا حيدا، وها أنذا أعلن براءتي من ذلك، ولكي تعرفوا صدق مودتي لبلادي، ها أنذا قد أتيت بحملة حيدا كاملة في أفرد (الهون) أي سلكت به وادي إيكالفن، إياكم أن يفلت منكم. » [91]

وخوفا من فشلها، أحاط الباعمرانيون خطة إيكالفن بسرية تامة، حيث إن القلة القليلة هي التي كانت على علم بها. وهكذا، وفي يوم 7 يناير، تم توزيع الرماة على قمم وسفوح الجبال المطلة على المنطقة : ءوريغ، تامكرط نتلو . . . كما سدوا باب فج إيكالفن. واقتضت الخطة ترك الحملة تتوغل داخل الوادي، بعدها يتم الاجهاز عليها بوابل من الرصاص من جميع الجهات[92]. وخلال العمليات سقط حيدة بن مايس صريعا، وفر باقي القادة، وحمل رأسه إلى كردوس حيث معقل الشيخ أحمد الهيبة.[93]

إجمالا، فقد كانت المعركة نكسة وضربة لفرنسا، وكادت أن تعصف بالوجود العسكري الفرنسي، لولا تدارك القبطان Justinard الأمر، بأن جمع شتات القوات الموالية لفرنسا[94]، وأبلغ على وجه السرعة الكمندان Mas-latrie قائد منطقة أكادير بالوضع الصعب الذي توجد عليه القوى المتحصنة بتيزنيت. لهذا بادر هذا الأخير إلى الانتقال شخصيا على متن باخرة حربية إلى أكلو، لتنسيق جهود تموين القوات المرابطة بتيزنيت[95]، وعلاقة بالحادث أوقفت فرنسا في قبضتها رقاصا كان يحمل رسالة سرية من سفيري ألمانيا وتركيا بمدريد إلى أحمد الهيبة، تهنئه بالانتصار على الجيش الفرنسي بقيادة حيدة بن مايس[96].

ومما لا شك فيه أن هذا الأمر قد فرض على فرنسا إعادة النظر في استراتيجيتها العسكرية بسوس، وحاولت من خلال صحافتها التقليل من تبعات الواقعة.

ب) - حملة الجنرال دولاموط :

ففي سياق الوضع الجديد الذي مالت فيه الكفة لصالح القبائل المناوئة لفرنسا، أجبرت هذه الأخيرة على التدخل بشكل مباشر في سوس، لهذا استنفر الجنرال دولاموط القوات الفرنسية على وجه السرعة[47]، مدعوما بقادة الحوز وحاحا والشياظمة ورأس الواد . .

وكان وصوله لتيزنيت بتاريخ 15 مارس، ومن الخطط التي ركن إليها دولاموط هي فتح عدة جبهات (بونعمان، فوق ميرغت، إغير ملولن، بونعمان، إيمي مقورن . . .)[98] لتشتيت الجهود وإفشال خطة المجاهدين المتمثلة في تحصين جل منافذ الأطلس الصغير الغربي. إلا أن ما يثير الانتباه هو تركيز العمليات الحربية على منطقة ويجان على غرار الحملات السابقة[99]. فبالرغم من استكمال القبائل الولتيتية ومن يعاضدها كافة الاستعدادات لمواجهة الحملة الجديدة[100]، فإن تدخل الآلة الحربية الفرنسية كان عنيفا وقويا. وعلى منوال الحملة السابقة، لم يتوان العلماء والمتصوفة في إثارة حماس المتحصنين بويجان الذين أبانوا عن عزيمة واستماتة في مدافعة المحتل لمدة يوم كامل، وكانت خطتهم تتمثل في المرابطة في الخنادق البالغ عددها أنذاك ثلاثة خنادق، وعدم استعمال الذخيرة.

وحسب شهادة Dugard الذي عاين كل مراحل الحملة، فإن حملة دولاموط اصطدمت بمقاومة عنيفة، وأكد على صعوبة اقتحام هذا المنفذ، كما أبدى إعجابه بالخطط الحربية التي ركن إليها المتحصنون[101]. وبموزاة مع الآلة الحربية، نجح القائدان عياد الجراري والطيب الكنتافي من فتح شرخ داخل الكتلة المتحصنة، من خلال الاتصالات السرية التي توجت باستمالة زعيم الولتيتيين أحمد كومازر مقابل إغراءات مالية والانسحاب من ويجان[102]، وعلى ضوء ذلك نادى في الناس« إن البلد بلدي، ولا أريد أن تكونوا أيها المسلمون سببا لهدمه ». أمام هذا الأمر الواقع، لم يملك السكان أي خيار سوى الانسحاب من ديارهم والاحتماء بالجبال« هكذا خرج كل من بوجان حتى لا أنيس فيه ولا ديار مع طلوع الفجر » [103]. وحتى الشيخ النعمة، فإنه تمكن من الخروج خفية إلى قبيلة أيت رخا، بينما رابطت بها قوات الجنرال دولاموط مدة ثمانية أيام، وخلالها أعطى أوامره بعدم تخريب البساتين أو قطع الأشجار[104].

وفي 21 أبريل من نفس السنة، عقد اجتماع بقرية ميرغت[105]، شارك فيه من الجانب الفرنسي الكلاوي والمتوكي والكنتافي، ومن جانب القبائل الرافضة للفرنسيين كل من : المدني الاخصاصي والقائد مبارك البنيراني والعلامة سيدي علي بن عبد الله الإلغي، والواضح أن القيادة الجماعية

للقبائل المجاهدة لم تكن مستعدة لقبول شروط الحماية المتمثلة في : طرد الهيبة وتقديم الهدايا وتسليم الأسلحة بما في ذلك المدافع التي غنمتها القبائل في واقعة إيكالفن، واعتبرت تطبيقها مفتاح احتلال بلاد جزولة، لذا حرصت على عدم تقديم أدنى تنازل لفرنسا.

ومما لاشك غير أن لقاء ميرغت يعبر في العمق عن نضج سياسي كبير لدى المفاوضين المحليين الذين يمثلون عينة من كبار العلماء وقادة الجهاد الذي تمرسوا على مثل هذه المواقف. ولما تأكدت قوى التحالف المخزني، الفرنسي من عدم جدوى التفاوض مع القبائل، وإصرارها على مواصلة الجهاد، قامت باقتحام ممر تيزي عبر بونعمان. أمام هذا الأمر لم تتوان القبائل في الالتحاق بأيت باعمران لتعزيز القدرات الدفاعية للمجموعات التي كونت خطا دفاعيا حول المنطقة[106]. ولا شك أن التباين في الإمكانيات الحربية هو ما حذا بالباعمرانيين ومن يعاضدهم، على التراجع والانسحاب من ديارهم والاحتماء بالجبال، مما فتح المجال للقوات الفرنسية للتوغل حتى حدود قرية إيسك ببسيط تاكركرا، وتمكنت بذلك من وضع يدها على المدافع التي غنمتها القبائل في إيكالفن[107]. وبموازاة مع الآلة الحربية، دخل أتباع المتوكي والكلاوي في مفاوضات سرية مع القائد المدني وأحمد إغشي والقائد مبارك البنيراني وعلي المجاطي[108]، توجت بتقديم هدية صورية للجنرال دولاموط بتيزنيت[109]، التي تراجع إليها، بعد أن طرقت إلى مسامعه أخبار عن عزم الناجم الاخصاصي قطع الطريق الشمالي بتراب أشتوكن.

IV- الطيب الكنتافي كأداة لبسط النفوذ الفرنسي على سوس :

قبل انسحابه من سوس، بادر الجنرال دولاموط إلى تعيين الكنتافي باشا جديدا على تيزنيت[110]، والغالب أن اختياره نابع من كونه يتميز بخصال ومواصفات قلما نجدها عند باقي القادة الكبار من قبيل : مكانته بين القبائل، علاقته الودية مع عدد من أعيان وشيوخ القبائل، تجربته وحنكته التي راكمها عبر محطات تاريخية بارزة منذ نهاية القرن 19، ثروته وغناه، اعتناقه للطريقة الناصرية التي كان لها نفوذ بين سكان سوس[111].

لهذا وضع تحت تصرفه طابور تيزنيت المتكون من 800 شخص، ومدفعين خاصيين بالمناطق الجبلية[112]، وخلال أربع سنوات التي قضاها بسوس تمكن من بسط نفوذه على المناطق السهلية دون تدخل للقوات الفرنسية إلا في الحالات النادرة، وحقق بذلك مكاسب على حساب المجاهدين في الأرجام (أيت براييم) واشتوكن (بلفاع)، كما توغل داخل تراب إيلالن (غشت 1918)[113]. وفي عدة مناسبات دخل في اتصالات سرية وعلنية مع عدد من أعيان القبائل

غير الخاضعة، ويبدو أن نزوعه نحو الهيمنة، وإيمانه بجـــدوى العنف في عملية الخضــــوع، هو ما حـــذا به خلال الفترة الممتدة ما بين فبراير-أبريل 1921 إلى التوغل في تراب قبيلة أيت وادريم[115]. وقد اقترنت محاولته لاختراق المجالات الجبلية بإجراءات دفاعية من قبل القبائل المجاهدة، التي وزعت قواتها على 3 محاور :[116]

1- محور أيت حمد وأيت موسى أوباكو بقيادة القائد مبارك البنيراني . . .
2- محور إغير ملولن وميرغت بزعامة المدني الاخصاصي.
3- محور إيسك وتيزي.

وكانت الخطة تقتضي شغل انتباه الكنتافي بالمحور الأول، في حين تتكلف الوحدات الأخرى بالنزول إلى بسيط تيزنيت.

وعلى الرغم من التفوق الذي حققه الكنتافي في بداية الأمر بأيت أومليل[117]، إلا أن وضعه أصبح سيئا، ولم يتمكن من التحكم في الموقف العسكري لصالحه، خاصة إذا علمنا أن رد فعل القبائل المجاهدة كان سريعا وفعـــالا، الشــــيء الذي دفعه إلى التراجع صوب حصن الحسين أوعمر[118]، وطلب الإغاثة والتعزيزات من القيادة الفرنسية بأكادير[119].

وفي هذا الإطار يجب التأكيد على حرص فرنسا تعبئة أقصى ما يمكن من الإمكانيات لصالحه رغم تباين المواقف وانعدام التنسيق بين الكنتافي وبعض القادة العسكريين الفرنسيين، وحتى قادة بعض القبائل السهلية[120]. فعلى سبيل المثال عبر رئيس مركز أكادير عن امتعاضه من تنامي قوة القائد، وكونه شكل عائقا لكل تحركاته ومشاريعه لإخضاع الجنوب[121]، وهو ما حذا بالمقيم العام إلى استدعاء الطرفان إلى مراكش[122]. وقد عبر الكنتافي في رسالة مؤرخة بتاريخ 16 أبريل 1921 عن تقصير الحامية باكادير في إرسال الامدادات اللازمة له[123]. وصادف هذا الظرف استرداد الحركة الجهادية لقوتها، فبتاريخ 17-04-1921 وصل إلى علمه أن القبائل المجتمعة بالجنوب (أيت باعمران) على أهبة النزول إلى بسيط أيت برابيم مستغلة فراغ الجبهة الجنوبية[124].

وعلى ضوء هذه التطورات قام الجنرال الفرنسي قائد المنطقة بزيارة ميدانية للإطلاع على الأوضاع، قرر بعدها إرسال تعزيزات مكونة من : طابور تارودانت وبعض قوات المتوكي وفرسان حاحا لمساندة باشا تيزنيت، كما وصل سرب من الطائرات لنفس الغرض إلى تيزنيت تعضيدا له، إضافة إلى سفينة Au Regulus الحربية[125]. وبفضل هذا الدعم تمكن من تدارك الأمر بعد أن أجبر على التراجع إلى تيزنيت على وجه السرعة. وفي ذات الوقت أقدمت الطائرات والبارجة الحربية الفرنسية على قنبلة مواقع المجاهدين.

ومباشرة بعد تدارك الموقف الذي كاد أن ينفلت من فرنسا ومن يدور في فلكها، طرحت مسألة خلافة الكنتافي تيزنيت[126]. وهل سيكون بمقدور القبطان جوسينار القيام بهذه المهمة ؟ علما بأنه راكم تجربة ودراية بأمور المنطقة خلال المدة التي قضاها بتيزنيت، رغم اللحظات الحرجة التي كادت أن تعصف به في عدة مناسبات، لولا قوة شخصيته، وإيمانه القوي بعمله، وعلاقاته الوطيدة بأعيان المنطقة.

إجمالا وخلال أربع سنوات التي قضاها بتيزنيت، استطاع الكنتافي أن يكفي سلطات الحماية عناء التدخل المباشر بالمجالات السهلية التي عرفت هدوءا نسبيا.

V- تعيين مولاي الزين أو شرعنة الاحتلال :

أمام دهشة المستعمرمن تجدد كتلة المجاهدين، واستماتتهم في الحيلولة دون اختراق المناطق الجبلية المحصنة، ثمة قناعة عامة لدى الإقامة العامة، وهي ضرورة نهج استراتيجية جديدة أكثر فعالية لمواجهة الوضع الجديد بعد إعفاء الكنتافي في مهامه بسوس. لهذا بدا لها العودة إلى التقاليد المخزنية التي تحرص على تعيين ممثل عن الأسرة الملكية في منصب خليفة على سوسن ومقره تيزنيت. لهذا الغرض، وفي مستهل شهر يوليوز 1921، استقر الاختيار على مولاي الزين شقيق مولاي يوسف لتقلد هذه المهمة[127]، وكانت سلطات الحماية تراهن في ذلك على درايته بشؤون الجنوب منذ 1913 زمن ترأسه حملة كبار القياد في زحفهم على تارودانت، كما عين إلى جانبه باشا جديدا على المدينة وهو أحمد بن البشير الفاطمي (جوج كلمات) بمعية ضابط فرنسي للاستعلامات Bourguignon الذي راكم تجربة أثناء تقلده نفس المنصب بتارودانت. ومما لاشك فيه أن هذا الإجراء يروم بالأساس إعادة تمثين الارتباط المعهود والمألوف بين مؤسسة المخزن والقبائل السوسية، ومن تم الحرص على إضفاء نوع من الشرعية على مسعى فرنسا لإخضاع المناطق الجبلية، من خلال توظيف القيمة الرمزية للأمير وللمؤسسة المخزنية في مزاحمة مربيه ربه، إضافة إلى الرغبة في خلق دينامية في صفوف الطرف المخزني الذي كان يفتقد إلى الإنسجام والتنسيق كما رأينا آنفا.

للإشارة فإن الفترة الممتدة ما بين سنتي 1922-1927 تطبعها خاصية الانتظار والترقب، حيث خفت نسبيا وطأة العمليات العسكرية. ويمكن القول أننا هنا بصدد استراتيجية للتريث لا تخلو من ذكاء ، فالمحتل اقتنع بأن تكسير مقاومة جبال الأطلس الصغير لن يتأتى إلا بنهج سياسة تزاوح بين العمل السياسي والعمل العسكري.

وضمن هذه اللحظة التاريخية تتدرج معالم كبرى تختصر إلى حد ما علاقة فرنسا بهذه المنطقة، وتتحدد أساسا في :

* تكثيف الاتصالات مع بعض رموز الجهاد : من الواضح أن المفاوضات السرية والعلنية التي باشرتها فرنسا مع بعض رموز المقاومة لم تتوقف منذ خروج الهيبة من مراكش[128]، فطيلة مراحل مغامراتها العسكرية بسوس، حرصت عبر بعض أعيان وقادة القبائل على الاتصال بزعماء الجهاد أو استدراج بعض ممثلي المخزن المحلي[129]. وقد أبان بعض الوسطاء مقدرة وحنكة في الإقناع من خلال استعراض تجليات سطوة المخزن (الحماية) والتلميح إلى مظاهر القوة، مما يعني استحالة منازعة أو مناطحة الاحتلال[130].

* دور ضباط الشؤون الأهلية في اختراق جسم المقاومة : في ذات السياق يبرز دور الإدارة العسكرية الفرنسية المحلية أي ما يعرف بضبط الشؤون الأهلية[131]، خاصة المستمزغين منهم ، ممن لهم دراية بلغة وعادات المنطقة (جوستينار، بوركينيون)، وقد حرص هؤلاء على الاحتكاك المباشر بالسكان والبحث عن مواطن قدم لهم في البناء القبلي المحلي. وقامت سلطات الحماية بشحذ وإذكاء القدرات التفاوضية لهؤلاء وتمكينهم من الإمكانيات لإنجاح مهامهم المتمثلة في :

أ)- الإشراف على الاتصالات مع قادة القبائل، كتلك التي باشرها علي بن محمد الإيلغي ومولاي الزين مع مربيه ربه[132]، حيث ركنت إلى أسلوب الإغراء، بيد أن الشيخ بقي وفيا لمبدأه، ممتنعا باستحالة التوصل إلى حل مقنع مع الفرنسيين[133].

ب)- إثارة النعرات القبلية، والبحث عن مواطن الانقسام والتصدع في العلاقات بين القبائل (حالة الصراع بين المدني الاخصاصي وسعيد المجاطي)[134]، وقد اعترف الشيخ مربيه ربه بهذه الحقيقة في عدة رسائل موجهة إلى أعيان وعلماء المنطقة.[135]

ج)- إضعاف الخصم بواسطة العملاء، ومحاولة تسريب الجواسيس والمخبرين في محيط كردوس، لجمع المعلومات عن خطط القبائل الجبلية[136]. وفي هذا الصدد تمكن أتباع مربيه ربه من اعتقال جاسوسين فرنسيين من الوحدة الأجنبية الرابعة للمشاة، وتم إحضارهما إلى كردوس.

د)- استعمال سياسة الإشاعات في حق بعض رموز المقاومة، كما هو الحال بالنسبة للشيخ مربيه ربه، وذلك للتأثير سلبا على حركته.[137]

هــ)- تنظيم زيارة رسمية لوفد من كبار الأعيان الموريطانيين لتيزنيت ما بين 10-16 غشت 1922[138]، كإجراء يراد به التماهي والرغبة في الظهور بمظهر القوي الذي لا يقهر، وتسخير

هؤلاء لتثنية الشيخ مربيه ربه عن معاذاة فرنسا. كما تم توظيف جولات مولاي يوسف (نونبر 1926-أكتوبر 1927) لإضفاء الشرعية على سياسة فرنسا لاختراق الجيوب الجبلية المتبقية، واستقطاب رموز المقاومة(139).

* رد فعل القبائل : الواضح أن الهم الأساسي لإدارة الاحتلال هو إحكام السيطرة على معاقل المقاومة والوصول إلى عمق القبائل لتطويقها وإخضاعها، خاصة وأن هذه البقاع الجبلية تعتبر آخر المعاقل المحصنة التي ترفض الاحتلال، لهذا تطلب الاستعداد والتهييئ للإجهاز على الجبال، وضع خطة دقيقة في الزمان والمكان. وقد استؤنف هذا المشروع باحتلال الجيوب الواقعة جنوب شرق تارودانت (إيلالن، إيسافن . . .(140)) قصد شد الطوق على الأطلس الصغير.

وقد أجج هذا الإجراء شعور المجاهدين، حيث وقع استنفار قوات المجاهدين من أيت باعمران مرورا بمجاط وأمانوز وحتى أملن(141). وتزامنت حدة الاشتباكات مع فترة الحرث بين شهري شتنبر وأكتوبر 1923(142)، وخلال ذلك عبأ الشيخ مربيه ربه كل الطاقات القبلية المحلية لإبطال مفعول الخطة المخزنية، وهكذا ولتمكين المجاهدين من الآلـــيات الضرورية لمدافعة الاحتلال ولتقوية قدراتهم القتالية قـــام سنة 1922 بجولة قادته إلى عـــدة مواطن بالأطلس الصغير، صحبة ثلة من فعاليات الجهاد من أمثال : القائد المدني والقائـــد سعيد المجاطي والفقيه علي بن عبد الله الإلغي والطاهر الافراني والمحفوظ الأدوزي وسعيد بن بهوش الأكماري وإبراهيم أحريشي السملالي . . . توجت بتجميع مساهمات القبائل(143). وفي ذات الوقت كانت المعونات بما في ذلك الأعشار والزكوات والأموال تشحن بشكل منتظم نحو كردوس. وقد أحدث في أيامه سنة تمشى عليها، وهي دورة سنوية تؤدي فيها كل أسرة ريالا حسنيا مغرما واجبا، ولرؤساء القبائل في ذلك حظ فيلزمون الناس حتى يؤدوا ذلك مع الضيافات والهدايا، فيجمع آلافا في دورة »(144).

كما أضحى مستقر الشيخ مربيه ربه بكردوس مركزا حربيا لقادة الجهاد آنذاك(145)، حيث شهد طيلة الفترة الممتدة ما بين 1919-1934 عدة اجتماعات تنسيقية لترتيب الخطط التنظيمية والحربية للجهاد.

والحاصل أن مسغبة 1926(146)، التي كانت لها أثار سلبية على ساكنة الجبال بالخصوص، قد كبلت إلى حد ما عمل المقاومة التي افتقدت لحمتها وصلابتها. وقد استغلت فرنسا هذا المصاب في تضييق الخناق على المجالات الجبلية، وباشرت في احتواء قبائل إيداوتنان، اشتوكن الجبلية وأيت وادريم وأيت موسى أوباكو ومركز إغرم . . .(147)

خاتمة :

نرى بأن هذه العودة إلى محطة بارزة من تاريخ سوس في بداية القرن 20، يشكل مناسبة للتأكيد على ذلك الشعور الفطري لدى القبائل السوسية باستقلالها، والاستماتة في الدفاع عن ذلك، وهذا ليس معناه بالضرورة أن الأحداث والتطورات التي شهدتها المنطقة كانت في منأى عما يقع بباقي جهة المغرب. وقد شددنا على كلمة الجهاد كامتداد طبيعي وتاريخي للحمية التعبوية التي أصبحت من ثوابت تاريخ المنطقة، ومحصلة الخبرة التي تراكمت على الأقل منذ القرن 16.

ونعتقد أن ما قدم ليس إلا نتفا مبعثرة، وأن الكثير من أشكال الجهاد والمقاومة المحلية لم تدرس بعد، وهو ما يدفع إلى الإقرار بأننا، إنما نؤسس للإطار العام الذي يؤطر ملاحم وبطولات القبائل في الفترة الممتدة ما بين 1912-1927، في أفق الإلمام والإطلاع المتأني على مظان الوثائق والتقارير المحلية والدولية.

هوامش

1) انخرط ثلة من العلماء والفقهاء والمتصوفة منذ البداية في الحمية الجهادية بسوس التي انثابت سوس، وقاموا بتعبئة القبائل للتصدي الأجنبي، وتوحيد الكلمة، مع ضرورة تشديد العقوبات على خارق الإجماع، أنظر على سبيل المثال :

المختار السوسي : النور المبغي صص : 112-113.

عمر الساحلي : المدارس العتيقة . . . ج3 ص 129.

2) أحمد بومزكو : الشيخ ماء العينين وعلاقته بآل تيزنيت، ندوة الشيخ ماء العينين : فكر وجهاد، ندوة من تنظيم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير وبلدية تيزنيت، 2001 تيزنيت.

3) محمد القبلي: مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين، مجلة كلية الآداب،الرباط ع8، 1978.

عبد الرحمان التمنارتي : الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تح اليزيد الراضي 199، ص : 171.

4) لتقديم الشيخ إماما للجهاد، انعقد أول اجتماع بتيزنيت بعد صلاة الجمعة يوم 14 يونيو 1912. وثمة اتجاهان في صفوف العلماء فيما يخص مسألة زعامته الجهاد :

* اتجاه يجمع على تقديم الشيخ أحمد الهيبة من منطلق أنه سليل أسرة عرفت بالجهاد والعلم وأن خصاله وأخلاقه تجعل منه المنقذ للإسلام والمسلمين.

* اتجاه ثان امتنع عن مناصرته بدعوى أنه أبعد الناس عن السياسة وأقربهم إلى العلم والارشاد، إضافة إلى كون أهل سوس غير متمرسين في شؤون الحكم والسياسة.

- المختار السوسي : خلال جزولة 4/ 56 / عمر الساحلي ص : 129-130.

المعسول 3 : 368.

المعسول 4 : 118 - 134.

المعسول 2 : 175-177

- El Hiba : Fils de Malainin in ‘‘Renseignements, coloniaux N° 3 Mars 1916.

5) المعسول 3 : 105-106.

6) - Justinard (L) : notes sur L'histoire du sous au XIX siècle in Héspenis au XIX siècle in Héspenis 1926 VII P : 360.

الإكراري : روضة الأفنان في وفيات الأعيان ص ص : 39-40.

7) - Laroui (A) : Les origines sociales et culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1922) Paris 1977 PP : 384 – 385.

8) المختار السوسي، المعسول ج 4 : 121.

9) المختار السوسي : المعسول : ج.4 : 126.

10) المختار السوسي : المعسول : ج.4 : 121.

11) المختار السوسي : المعسول : ج.4 : 131– 150، العباس بن إبراهيم المراكشي: رسالة في الشيخ أحمد الهيبة (مخطوط خزانة ذ. أحمد السعيدي).

12) المختار السوسي : المعسول : ج.4 : 143.

13) المختار السوسي : المعسول : ج.4 : 169.

14) المختار السوسي : المعسول : ج.4 : 170.

15) المختار السوسي : المعسول : ج.4 : 134 – 150.

16) ن. م.

17) ن. م.

18) ن. م. ص 150.

19) أوعلى حد تعبير ليوطي مغربة الغزو.

- Daniel Rivet :Lyantey et l'institution du protectural au Maroc Paris1988 T1:1992

- De Mastatrie (col) : La politique des grands caïds au maroc. Revue Militaire Française N° 111 – 1930.

20) - Faucauld (ch.) : De Reconnaissance au Maroc 1883-1884 /Paris 1988.

- Segonzac E. de : Voyage au Maroc Paris 1903
- Gatell J- : Description du souss B.S.G 1, 1871.
- . . . : l'oued Noun et le Tekna à la côte occidentale du Maroc Bs.G XVIII 1869
- lebel, Roland : le Maroc dans les relations des voyageurs anglais aux 16/17/18 siècle héspéris T IX 4ème trimestre 1929.
- Brives A. : voyage au Maroc 1901-1907, Alger, 1909.
- Le chatelier André : Tribus du sud-ouest marocain, Bassin côntiers entre sous et draa éd. Ernest leroux . Paris 1891.

21) أحمد بومزكو : الظاهرة القائدية من خلال كتاب روضة الأفنان للإكراري، اليوم الدراسي حول "كتاب : روضة الأفنان في وفيات الأعيان" تيزنيت 24 مارس 199 من تنظيم كلية الآداب – أكادير - .

22) أعفيف م.: الحركات الحسنية من خلال مؤلفات ابن زيدان، مجلة كلية الآداب الرباط، ع 7، 1980.

- Gerenton E : les expéditions de Moulay El Hassan dans le sous, A.F.R.C. N° 9 , 1924.

أحمد بومزكو : تيزنيت والمخزن 1882-1894، مجلة المناهل عدد 1998/58 ص : 110-130.

23) نماذج من وثائق الخزانة الحسنية / وثائق دار إيليغ.

- Daugan (G) : les confins sud de la région de Marakech . . . P : 396

24) جامع بيضا : سقوط أكادير تحت الاحتلال الفرنسي وسياسة القواد الكبار في عهد ليوطي، أعمال ندوة أكادير الكبير 1990، ص 11.

25) - Bulletin du comité de l'Afrique Française Iuin 1913, P : 219.

26) أنظر المختار السوسي : المعسول (عدة مواضع متفرقة).

27) علي الشامـــي : الصحراء المغربية، عقدة التجزئة في المغرب العربي، دار الكلمة للنشر 1980، ص : 109.

أنظر كذلك أحمد بومزكو و النعمة ماء العينين : أفكار الشيخ مربيه ربه من خلال بعض مؤلفاته، مجلة المناهل عدد 49 سنة 1995.

28) خزانة الأستاذ أحمد أبو القاسم (تيزنيت).

29) - Justinard (L) : Notre Action dans le sous, in : Renseignements coloniaux, N° 12, 1926, P / 546.

- Voinot (L) : sur les traces glorieuse des pacificateurs du Maroc, Paris 1939, P : 159

30) المعسول ج 4، ص 158 – 167.

31) المعسول ج : 4 ص : 180-181.

32) - Voinot : op.cit P : 516

33) المعسول ج : 4، ص : 164.

34) المعسول ج : 4، ص : 180.

35) نفسه.

36) نفسه، ص : 181.

37) نفسه، ص : 187.

38) نفسه، ص : 188.

39) - Pierre Albin : le coup d'Agadir – Paris 1912

- Raymond Poincaré : Le lendemain d'agadir 1912 – Paris 1912.

40) جامع بيضا، مرجع سابق، / عمر أفا : التواجد الألماني بالجنوب المغربي في نهاية القرن 19 ومطلع القرن 20، مجلة كلية الآداب الرباط، ع 19، 1984، ص : 72-74.

41) جامع بيضا : ن.م.

42) الإكراري : روضة الأفنان . . . ص : 50 / المعسول (مذكرات المانوزي)، ج 3، ص : 380.

-"Le sud Marocain" in Renseignements coloniaux et documents 5 et 6 Mai et Juin 1917 – P : 177.

43) الإكراري، ص : 53.

44) المعسول، ج : 4، ص : 171.

(45 - Le sud marocain .op. cit. P : 133

الإكراري، ص : 51 – 53.

(46 - El Hiba . . . In Renseignements coloniaux N°3 Mars 1916, P : 66

- Le sud Marocain, P : 134.

47) هذا ما يفهم من سياق حديث الناجم الاخصاصي عن الخطط الحربية للقبائل، أنظر المعسول، ج 20.

(48 - De mas latrie (col) : la politique des grands caïds au Maroc . . . P : 368.

(49 - Voinot : Dp. Cit. : P : 162

(50 - Ibid, P : 161.

- R.C N° 3 et 4, P : 67.

51) الإكراري، م.س، ص : 52.

- Le sud Marocain : P : 134

(52 - De maslatrie : op.cit p : 370

- Voinot : op.cit p : 160

53) الإكراري، م.س، ص : 53.

54) المعسول ج 20 : 111

- De maslatrie : op.cit

55) جامع بيضا : مرجع سابق، ص : 5.

(56 - Voinot : Op. Cit. : P :

(57162 - Ibid, P : 162

- Justinard : Notre action P : 548

(58 - Voinot : op. cit : 161

(59 - De Maslatrie : op. cit P : 370

(60 - Ibid p : 371

(61 - Ibid

62) المعسول، ج : 4، ص : 198.

أحمد بومزكو : مادة كردوس/ معلمة المغرب، ج 19.

(63 - Justinard : op. cit. p : 549

(64 - Voinot : op. cit. P : 162

65) - Ibid p : 161

66) - Ibid.

67) المعسول، ج3

68) أنظر أحمد بومزكو : مادة ويجان، معلمة المغرب، ج : 22.

69) المعسول، ج : 2، ص : 235.

70) التدارتي محمد : قلائد المرجان في تعيين بعض أعلام ويجان (مخطوط).

71) المعسول، ج1، ص : 342 / ج 2، ص : 99 / ج3، ص : 386.

72) المعسول، ج3، ص : 259-385.

73) المعسول، ج20، ص : 130.

74) - Voinot : Op. Cit. : P : 162

75) - Justinard : Notre action, P : 548
- Voinot : op. cit. P : 161-162
- R.C N° 3 et 4 P : 67.

76) - El Hiba N° 4 p : 90
- Maurice (L) : La politique marocaine de L'Allemagne 5ème édition librairie Plon, Paris 1916

77) أنظر المعسول، ج 4، ص : 104 / ج15، ص : 233.

78) عمر أفا : مرجع سابق، ص : 83.

79) - Voinot : op. cit. P : 162

80) - El Hiba : op.cit p : 90

81) - Ibid.

82) المعسول، ج4، ص : 201-202.
- Justinard (L) : Les aït Bâ Amranes Paris, 1930

83) - Voinot : op. cit. P : 162

84) - Voinot : op. cit. P : 162

85) - Justinard : notre Action p : 550
- Justinard : op. cit.

86) أنظر حول أسباب نقل بن دحان : المعسول، ج4، ص : 196. والظاهرة في سياق الأحداث أن الحاج عبد الرحمان حديمان والقائد الغبولي الماسي كانا مجبران على التعامل مع حيدة، وبتوافق مع عياد الجراري.

87) المعسول، ج4، ص : 203
- Voinot : op. cit. P : 162

(88 - Voinot : op. Cit

(89 - Justinard (L) : Les aït Bâ Amranes
- Justinard notre Action p : 548

90) أحد أشهر نفاليس قبيلة أيت النص الباعمرانية، من قرية المسيدرة.

91) الحسين جهادي : معركة إيكالفن، ندوة حول الأبعاد الوطنية والدولية لمعركة إيكالفن، بونعمان 1995.

92) رواية شفوية للمرحوم موسى بن الطيفور.

93) المعسول، ج4، ص : 205.

(94 - Justinard : op. cit p : 549

(95 - Ibid
- Voinot : op. cit p : 162

(96 - Voinot ; op. cit p : 163
عمر أفا : مرجع سابق، ص : 78-79.

(97 - Maurel (G) : Les opérations Militaires au maroc Paris p : 86
- Voinot : op. cit p : 163
- Dugard : la colonne du sous 1917, Paris 1918
المعسول، ج 4، ص : 205-206.

(98 - Dugard : op. cit

99) أحمد بومزكو : مادة ويجان، معلمة المغرب، ج22.

100) أنظر مادة ويجان.

(101 - Ougard : la colonne du sous, p : 115-122-125-126-127,130

102) المعسول، ج3، ص : 386.

103) نفسه، ص : 387.

(104 - Justinard : op. cit p : 150

105) المعسول : مذكرات المانوري، ج3، ص : 390-391.

106) نفسه، ص : 392.

107) المعسول، ج4، ص : 207.

108) المعسول، ج3، ص : 397 / ج4، ص : 207

109) نفسه، ج4، ص : 207.

(110 - Justinard : Le caïd El Goundafi, Casablanca 1952.

(111 - Ibid, p : 159

112) - Ibid

113) - Ibid, p : 169

114) - Daugan (G) : op. cit p : 399

115) - Voinot : op. Cit p 162 + Ibid p : 182

116) - Ibid, p : 187

117) - Ibid

118) - Ibid

119) - Ibid

120) - Daugan : op. cit p : 319

121) - Justinard : op. cit p : 182

122) - Ibid

123) - Ibid, p :182

124) - Ibid

125) - Ibid

126) الإكراري : روضة الأفنان، ص : 103 (ثمة اختلاف في تفسير سبب نقل الكنتافي عن سوس صيف 1921، فمحمد المختار السوسي، يرجع ذلك إلى مغامراته في منطقة جبلية حساسة (ايت وادريم) رغم معارضة الجهات العسكرية الفرنسية، بينما يرى القبطان جستينار أن عامل السن كان وراء إقالته، أما الإكراري فعزا ذلك إلى منابذته القائد عياد الجراري ومنافرته أياه، " فهما في طرف نقيض"، ومهما يكن من أمر فإن سلطان الحماية أنعمت عليه بوسام سام تقديرا لخدماته.

- Justinard : op. cit p : 169

- Gouvion J et M : A'yan al –Maghrib al-Aksa Paris 1939

127) - Daugan : op. cit p : 396-400

- Gouvion : op. Cit

128) في سياق مسعاها لاقتلاع جذور المقاومة بسوس، بادرت فرنسا إلى فتح مفاوضات سرية مع الهيبة منذ 1913 عبر عدة قنوات، ويبدو أن الشيخ قد قدم مقترحات جريئة أغرت ليوطي، الذي تحمس لها مبدئيا، "لصيانة الأمن وتهدئة الخواطر". والحال أن الدوائر العليا بباريس قد أبدت معارضتها لهذا الأمر، واعتبرت أن تحويل النفوذ الروحي للهيبة إلى سلطة زمنية يشكل تهديدا وخطرا على مصالح فرنسا.

المعسول، ج 4، ص : 180-181.

- Daniel Rivet : op. cit

129) كما هو الشأن بالنسبة للقائد الحاج أحمد التمنارتي قائد تمنارت وزعيم إيليغ علي بن محمد الإيليغي

اللذان دخلا في مفاوضات مبكرة مع سلطات الحماية، دون أن يحددا موقفا نهائيا من مسألة الاحتلال، ومرد ذلك على ما يبدو إلى استحالة قطع الروابط والصلات مع الحركة الجهادية التي مازالت متأججة، وتتمتع بقاعدة قبلية واسعة حتى في المجالات التي يراقبونها.

- شفيق أرفاك : إشكالية الإزدواجية بين المقاومة والاستعمار : نموذج القائد التمنارتي 1912-1930، مجلة الذاكرة الوطنية عدد 3 / 2002 ص : 59.

- Dugard : op. cit p : 278

130) شفيق أرفاك : م. س.

131) اختزال الكولونيل Berrian دور ضباط الشؤون الأهلية في قوله "كانت الخطة المرسومة لضابط الشؤون الأهلية هو أن يتجه أولا للرؤساء المعترف بهم في القبيلة، فيثير أطماعهم، ويعمل على ربطهم به بواسطة المصلحة أو الطموح أو بذل المال . . . ويعمل على تفكيك الفرق المراد إخضاعها بواسطة صراعات الأطماع والمصالح، وبذلك يكون قد جزأ وأضعف الفرق المقاومة في القبائل".

- Berrian (col) : l'officier des renseignements au Maroc, Rabat 1918 P :7

132) المعسول، ج4، ص : 267

- Bernard (M) : les opérations de pacification de l'anti-Atlas. In : la géographie, Ferrier 1934 p : 28 – 29 .

133) أحمد بومزكو والنعمة ماء العينين، مرجع سابق.

134) كادت هذه الوضعية أن توسع الشرخ بين صفوف المقاومة لما اتهم القائد سعيد البنيراني غريمه القائد المدني بالتواطئ مع الاستعمار، المعسول ج3، ص : 317-318.

135) يتراءى ذلك في عـــدد من المراسلات التي كان يرسلها الشيخ إلى أعيان وقادة القبائل (رسائل مربيه ربه).

136) أحمد بومزكو والنعمة، مرجع سابق.

137) أنظر على سبيل المثال : رسالة الشيخ مربيه ربه إلى علي بن محمد الإيلغي 29 شوال 1344.

138) - Daugan : op. cit p : 397

139) الإكراري : مرجع سابق، ص : 104.

140) - Bernard (R) : op.cit

- Daugan : Op. cit p : 401

المعسول، ج3، ص : 396

141) المعسول، ج3، ص : 396 /ج16، ص : 184.

142) نفسه.

143) أحمد بومزكو والنعمة ماء العينين، مرجع سابق.

144) المعسول، ج4، ص : 250.

145) مادة كردوس، معلمة المغرب، ج 19.

146) ثمة قصيدة للشاعر الحاج بلعيد يصور من خلالها الأثر السلبي الذي خلفته مجاعة 1926 على نفسية السكان ووضعيتهم المادية والاجتماعية.

أحمد بومزكو : قراءة في تاريخ سوس من خلال شعر الحاج بلعيدن.ندوة الحاج بلعيد. تيزنيت 1989.

147) - Bernard (M) : op. cit